إنّ الأماكن التي عاش فيها ابن الحاجب هي بلاد الشام ومصر وكانت تلك البيئة مسرحاً للفتن والحروب الصليبية طيلة حياته، وعصره عصر مواجهة بين المسلمين والفرنجة، كما شهدت الأمّة الإسلاميّة في خلال ذلك العصر انتصارات عظيمة بقيادة صلاح الدين الأيوبي[1].

الواقع السياسي:

استقرّ الصليبيون الأوربيّون في سوريّة وفلسطين في خلال فترة انحطاط السلاجقة أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وعجزت الدولتان العباسيّة والفاطميّة عن المواجهة، وكانت سورية منقسمة على نفسها من الناحيتين السياسيّة والدينيّة، وتألّم أهلها لما كانوا يشاهدون من فتور وتهارن وانشقاق سياسي يحول دون كفاح الفرنجة، فاستعانوا بأكراد وأتراك الموصل "الزنكيين" القريبين، وانتشرت فكرة الجهاد في حلب أوّلاً، ثمّ في دمشق، واغتنم زنكي وابنه نور الدين هذه الفكرة، فتمكّن الأوّل من إعادة الرّها من الفرنج، ووحّد الثاني سورية تحت لوائه، وضيّق على الصليبيّين حتى حصرهم داخل المنطقة الجبليّة[2].

عمّت الفوضى الدّيار المصريّة ممّا أغرى الفرنجة بالتدخّل في شؤونها، لكنّ نور الدين أرسل جيشاً قويّاً بقيادة شيركوه، يساعده صلاح الدين الأيوبي، واستطاعا في النهاية أنْ يستقرّا هناك، وحلّ صلاح الدين محلّ شيركوه بعد وفاته، فتولّى الوزارة في ظلّ الخليفة الفاطمي العاضد، ولم يلبث بعد عامين، أي سنة "١١٧١م" أن وطّد انتصاره بالقضاء على الخلافة الإسماعيلية، وغدت مصر والشام تابعتين للزنكيين، ثمّ للأيوبيين بعد وفاة نور الدين[3].

انطلقت من الدّيار المصريّة حملات صلاح الدين على الفرنجة، "وانتصر عليهم في معركة حطّين سنة «٥٨٣هـ» فأعاد القدس إلى حظيرة الإسلام، ولم يترك للصّليبيين سوى بعض التحصينات الساحلية، بيد أنّ خلفاء صلاح الدين حاولوا بعد وفاته سنة «٥٨٩هـ» أن ينتهجوا مع الفرنجة سياسة التعايش السلمي"[4].

اتّسم عهد الأيوبيين بالتنابذ والنّزاع فيما بينهم، وحاول كلٌّ منهم أنْ يأخذ ملك أخيه، وصار كما قال عنهم القاضي الفاضل:

"أمّا هذا البيت فإنّ الآباء منهم أنفقوا فسلكوا، وإنّ الأبناء منهم احتفروا فهلكوا"[5].

---

[1] الكامل في التاريخ ١٢/٤١٤.

[2] تاريخ الشعوب الإسلامية، كلود كاهن، ترجمة بدر الدين القاسم من ص٣٦٠-٣٦٨، ط١ - دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٢م.

[3] المصدر السابق من ص٣٦٨-٣٧٥.

[4] تاريخ الشعوب الإسلامية من ص٣٧١-٣٧٥، والحياة العقلية من ص٤-١٩.

[5] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة شهاب الدين أبو محمد ٢/٢٣١، ٢٣٢، مطبعة وادي النيل - القاهرة ١٢٨٧هـ.

عاصر ابن الحاجب الذي امتدّت حياته من سنة "٥٧٠هـ-٦٤٦هـ" فترة الحكم الأيوبيّ بدءاً بصلاح الدين، ومروراً بابنه العزيز عثمان، واخوته وأولادهم حتى آخرهم توران شاه المعظّم الذي انتهت مدة حكمه سنة "٦٤٨هـ" وعايش الصراع السياسي بين الشرق والغرب.

بدا أثر ابن الحاجب في هذا الواقع في تصدّيه للفرنجة وأتباعهم، إذ التزم مع صاحبه عز الدين ابن عبد السلام بفضح العملاء وتشييع فعلتهم في دمشق، وواجه البطش والسجن بالتحدّي[1].

أمّا أثر الواقع السياسي عليه فبدا فيما وضعه من مختصرات ومقدّمات ومتون، حيث جاءت ردّاً على النزاع والقلق اللذين سادا العالم الإسلامي يومذاك بسبب كثرة الفتن والاضطرابات الناتجة عن هجوم الصليبيين على المسلمين، وبسبب صراعات المسلمين بين بعضهم البعض، وكذلك منازعات خلفاء صلاح الدين.

فالمختصرات ردّ على الوضع، وتأقلم معه، لأنّ صغر حجمها يسهّل نقلها وحفظها، واستظهارها، ويقلّل من فرص ضياعها وتلفها، بدليل أن ابن الحاجب ومن جاء بعده عادوا فشرحوا تلك المختصرات بعد شعورهم بنوع من الاستقرار.

الواقع الاجتماعي:

إنّ توزّع طبقات المجتمع في ظلّ الدولة الأيوبيّة لم يكن جديداً، فأصوله قديمة، إذ اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تصنيف طبقاته.

من أبرزها في عصر الدولة الأيوبيّة:

١- *الطبقة الحاكمة:*

حكمت الدولة الأيوبيّة مجموعة من السلاطين الأكراد، أوّلهم صلاح الدين الأيوبيّ، فتوزّعت مناطقها على خلفاء صلاح الدين، وكان بأيديهم أمر الخلفاء العباسيين، وتولّوا السلطة الفعليّة في الحكم نيابة عنهم، كما اعتمد الأكراد في دعم ملكهم على أبناء جلدتهم، وغيرهم من المماليك.

٢- *رجال الدين:*

تشمل طبقة رجال الدين أولئك الذين وصلوا إلى درجة عالية من الثقافة والعلم، وتفقّهوا بأمور الدين وتعاليمه، وكانوا على دربة كافية بأحكامه، وتوزّعوا بين العمل في القضاء، والخطابة في المساجد، والتدريس ومنهم من تركّز في وظائف الدولة قريباً من الحكّام، وكان كثير منهم يعلن كلمة الحقّ أمام السلاطين والحكّام دون خوف، وقد رأينا كيف رفض عز الدين ابن عبد السلام الدعاء

---

[1] البداية والنهاية ابن كثير ١٣/١٥٥ وذيل الروضتين أبو شامة ص١٨٣.

على المنبر لسلطان دمشق الملك الصالح إسماعيل بسبب تحالفه مع الصليبيين، والسماح لهم بدخولها وابتياع السلاح منها[1].

٣- بقيّة فئات الشعب:

تشمل الفلاحين والصنّاع والتجّار، وسائر العوام. يشكّل الفلاحون السواد الأعظم من هذه الطبقة، وكانت الطبقة الحاكمة تحتقرهم؛ لأنّ نظام الإقطاع سائد في ظلّ الدولة الأيوبية وما قبلها، وكان الفلاّح عبداً لمن يعمل لديه، واستخدم أصحاب الإقطاع من الأمراء والأجناد والأتراك والأكراد الفلاحين في إقطاعاتهم عنوة وقهراً، أمّا أرباب الصناعات والمهن الحرّة فكانوا أحسن حالاً من غيرهم، فالتجّار أقرب إلى السلاطين؛ لحاجتهم إليهم، ولكنّهم عُوملوا كسائر أبناء الشعب، ففُرضتْ عليهم الضرائب الكبيرة[2].

الواقع الديني:

توزّع الناس في بلاد الشام بين المذاهب السنّية الأربعة، والمذاهب الشيعيّة إلى جانب تواجد المتصوّفين. فسيطر المذهب الشافعي في العصر الأيوبي؛ لأنّ صلاح الدين شافعيّ متعصّب، وأحيا الزنكيّون المذاهب السنّية عامّة، وتصروا المذهب الحنفي؛ وجعلوه مذهب دولتهم الرسميّ، وكان الملوك الأيوبيّون شافعيين إلاّ الملك المعظّم عيسى فكان حنفياً. أمّا في مصر فكان الفاطميّون الشيعة، وأوّل عمل قام به صلاح الدين القضاء على طوائف الشيعة الفاطميين، وغيرهم، وصيّر المذهب الشافعي هناك مذهب الدولة الرسمي، فأبطل الخطبة في الجامع الأزهر، ليصرف اهتمام الناس عنه؛ لأنّه أقدم مكان لنشر الدعوة الشيعيّة، وقلّد وظيفة القضاء صدرَ الدين درباس الشافعيّ[3].

كان الصراع قائماً بين المذاهب المذكورة للحدّ من هيمنة أرباب المذهب الشافعيّ، وكان الشيعة منتشرين في بلاد الشام منذ عهود الإسلام الأولى، فكانوا في صراع مع المذاهب السنّية؛ ليحفظوا بقاءهم، ولم يستطع الأمويّون الحيلولة دون انتشار التشيّع، فأشار ابن جبير (ت سنة ٦١٤هـ) إلى أنّ كثرة مشاهد أهل البيت تدلّ على كثرة انتشار التشيّع[4].

طبقات الشافعية الكبرى، السبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي السبكي" ٥/٨٠، المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٤هـ.
وأدب الدول المتتابعة، الدكتور حمد موسى باشا بن ص٦٣ ـ ٦٥، ط١، دار الفكر الحديث لبنان ١٩٦٧م.

[1] مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم" تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع والدكتور سعيد عاشور ٣/٢٤٣، الهيئة المصرية العامة القاهرة. طبعة بدون تاريخ.

[2] الحياة العقلية ص١٥، وأدب الدول المتتابعة ص٨٣.

[3] رحلة ابن جبير" أبو الحسن محمد بن أحمد" ص٢٢٩-٢٣٠، المكتبة العربية، بغداد ١٣٥٦هـ.

أمّا التصوّف فقد لقي في فترة حكم الزنكيّين والأيوبيّين كلّ تشجيع، وعجبَ ابن جبير كثيراً من الصوفية في بلاد الشام، عندما زارها في عهد صلاح الدين في القرن السادس الهجري[1].

حاول الفاطميّون أن يطبعوا التصوّف بطابعهم، فأدخلوا فيه كثيراً من عقائدهم واتجاهاتهم الشيعيّة والفاطميّة في بلاد الشام، ولم يستطع صلاح الدين الحيلولة دون تسرّب العقائد المختلفة، والفلسفات الدخيلة إلى التصوّف، فتطوّر من شكله البسيط إلى أسلوب خاص في الحياة الدينية[2].

على الرغم من سيطرة المذهب الشافعي أيام الأيوبيّين والصراع بينه وبين المذاهب الموجودة آنذاك للحدّ من هيمنته، فإن ابن الحاجب أتقنَ مذهب مالك بن أنس، وصار فقيهاً بارعاً في العلوم الأصولية. عالج أصول الفقه المالكي في كتابه "منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل" ومختصريّه "المنتهى وجامع الأمهات"، وفرض على خصومه المذهبيين موقفاً إيجابياً منه ومن مؤلفاته، فقد بالغ الشيخ تقي الدين بن دقيق أحد أئمة الشافعيّة في مدح كتاب "الجامع بين الأمهات". كما قال شيخ الشافعيّة آنذاك كمال الدين الزملكاني: ليس للشافعيّة مثل مختصر ابن الحاجب للمالكيّة[3].

الواقعان الثقافي والفكري:

توهّم الكثيرون بأن الانحطاط حلّ بالأمة الإسلاميّة في خلال القرنين السادس والسابع الهجريّين، وأنّ الحضارة الإسلامية أصيبت بشلولة الحركة، وعدا الفكر عقيماً. إنّ اضطراب الحركة الثقافيّة في مصر بسبب الاضطرابات السياسيّة التي أصابت الدولة الفاطميّة في تلك الفترة، وتحوّل الفكر الفلسفي في اتجاه صوفي بسبب البيئة السياسيّة التي لم تكن ملائمة لتطوّره لا يعني حصول انحدار أو انحطاط في قطّاعات الثقافة الأخرى، وإنّ غنى المكتبة العربيّة بإنتاجها الضخم في ذلك العصر يدلّ على حركة علميّة ناشطة، و ثقافة ممتازة، تنوّعت فروعها، وحمل لواءها أعلام نابغون من فقهاء ونحويين ولغويين وعروضيين، ومحدّثين ومفسّرين[4].

إنّ السبب الأساسي لهذه النهضة العلميّة في بلاد الشام ومصر يعود إلى تشجيع الأيوبيين للعلم والعلماء، وتقريبهم منهم. قال بهاء الدين ابن شدّاد قاضي عسكر صلاح الدين: "إنّه كان يُكرم من يرد عليه من المشايخ، وأرباب العلم والفضل، وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأنْ لا نغفل عمّن يجتاز الخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده، ويناهم إحسانه"[5].

كان من بين ملوك الأيوبيين علماء وأدباء يحبّون العلم، ويُقبلون عليه، ويكرمون العلماء.

---

[1] المصدر السابق ص٢٣٣، ٢٣٤.

[2] لب النول المتتابعة من ص٨٥-١٠١.

[3] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص١٩٠/١٩١.

[4] الحياة العقلية ص٤.

[5] الفوائد السلطانية والمحاسن اليوسفية. ابن شداد "بهاء الدين" ص٢٥. مطبعة القاهرة ١٣٤٦هـ.

النشاط النحوي:

شهدت بلاد الشام ومصر نشاطاً نحوياً ملحوظاً في خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وكان النحو مادة ثقافية يهتمّ بها الدارسون لاجتناب اللحن، والاهتمام بعلوم القرآن، وكانت دمشق وحلب والقاهرة مراكز لعلماء النحو في تلك الفترة، وإذا كان النحو قد وضعت أصوله ومتونه، وشُرِحَتْ قواعده، فإنّ النشاط النحوي في تلك المدن اتّجه اتّجاهاً تعليمياً محضاً. فشروح النحو تورّعوا على حلقات يدرّسون فيها كتاباً موجزاً في النحو، يعنونه بالشرح والتعليق، وكان أهمّ كتاب يدرّس مصر والشام في ذلك الحين هو كتاب المفصّل للزمخشري الذي تمّ تأليفه في أوائل الحروب الصليبيّة سنة ٥١٣هـ[1]. كما اهتمّوا بكتب السابقين من النحويين، ونقلوا منها الكثير: اهتمّوا بكتاب سيبويه، وبكتب الفارسي والزجّاج، وغير ذلك، ولم تتوقّف جهود النحويين على تدريس كتب السابقين، والاعتماد عليهم في شروحهم، بل ساهموا في التأليف، فألّف ابن الحاجب الكافية في النحو وشرحها، والوافية في الصرف وشرحها، والأمالي النحوية، وألّف ابن مالك الكافية الشافية والألفيّة، وكتاب التسهيل. إن تلك الكتب لا تزال مراجع في النحو والصرف للمتعلمين وغيرهم.

---

[1] الحياة العلمية ص١٩٨.

الفصل الثاني

نشأة ابن الحاجب ومقوّمات شخصيته

- جذوره
- أخلاقه ومقوّمات شخصيته
- ثقافته وأساتذته

نشأة ابن الحاجب

١- جذوره:

ينتمي ابن الحاجب إلى أب كرديّ هو عمر بن أبي بكر بن يونس الكرديّ الدويينيّ الأصل[١]. عاش والده قبل مجيئه إلى مصر في قرينه "دَوِين"[٢] بفتح أوّلها وكسر ثانيها، الواقعة في نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس، منها ملوك الشام بنو أيّوب؛ لأنّ الأسرة الأيوبيّة من أصل كرديّ، إذْ كان شاذي جدّ صلاح الدين يعيش في بلدة "دَوِين" من بلاد أذربيجان[٣]، أمّا والده فهناك خلاف في كونه حاجباً للأمير عزّ الدين أو صاحباً.

ذكر ابن خلّكان أنّه كان حاجباً للأمير عزّ الدين موسك الصلاحي وكان كرديّاً[٤]، وذكر ابن كثير أنّ أباه كان صاحباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي[٥]، وتحدّث الأدفوي عن الصفتين، فذكر أنّ أباه كان حاجب موسك الصلاحي الكرديّ، وأنّ الكنجي ذكر في تاريخ القدس أنّه سمع الفقيه الإمام الخطيب عبد المنعم بن يحيى يقول: "لم يكن أبوه حاجباً، وإنّما كان يصحب بعض الأمراء"[٦].

كما رجّحنا ولادته برواية صديقه ومعاصره ابن خلّكان، فإنّ روايته هنا ومن اتّبعه أقرب إلى الصواب؛ لمعاصرته ابن الحاجب، ولمعرفته الشخصيّة به، فأبوه كان حاجب الأمير و لم يكن صاحبه.

أمّا ما يتعلّق بأفراد أسرته الآخرين فإنّي لم أعثر في المصادر التي اطّلعت عليها على أيّ خبر يفيد شيئاً عن والدته وإخوته وزواجه وأولاده وعلاقاته الاجتماعية مع أقربائه باستثناء العبارة العارضة التي ذكرها صاحب ذيل الروضتين: "وأخبرني صهره الكمال أحمد بن سليمان أنّه دُفِنَ خارج الإسكندريّة"[٧].

إنّ ولادة ابن الحاجب في إسنا بأقصى الصعيد، ونشأته بقوص "مدينة بصعيد مصر"[٨] وانتماءه إلى أب كرديّ نشأ في البلدة نفسها التي نشأ فيها صلاح الدين أثّر في نشأته وبنيته الخَلْقيّة

---

[١] بغية الوعاة ١٣٤/٢.

[٢] معجم البلدان ١٩٤/٢.

[٣] التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة "تاريخ مصر وسوريا" تأليف الدكتور أحمد شلبي ١٨٥/٥، ط٧ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م.

[٤] وفيات الأعيان ٢٤٩/٣، ودائرة المعارف الإسلامية ١٢٦/١.

[٥] البداية والنهاية ١٥٧/١٣.

[٦] الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، الأدفوي "الفضل كمال الدين جعفر" تحقيق سعد محمد حسن ص٣٢٦. الدار المصرية للتأليف والترجمة بمصر "كوّن تاريخ".

[٧] ذيل الروضتين "أبو شامة" ص١٨٢.

[٨] البلغة في تاريخ أئمة اللغة، الفيروزبادي "مجد الدين محمد بن يعقوب" تحقيق محمد المصري ص١٤٠ منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٣٩٢هـ.

والفكريّة، فنشأ قوياً جلْداً، كثير التنقّل بين مصر والشام والكرك، لا تعيقه العوائق وبدأ منذ صغره بقراءة القرآن وتلقّي العلوم؛ نظراً لتوافر المدارس ولمكانة والده آنذاك[1].

٢- أخلاقه ومقوّمات شخصيّته:

تحدّث معاصروه ومن ترجم له عن أخلاقه وصفاته، فكان ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، بارعاً في العلوم الأصوليّة، وكان من أذكى الناس قريحة، وكان ثقة حجّة، متواضعاً عفيفاً، كثير الحياء، منصفاً، محبّاً للعلم وأهله، باشراً له، محتملاً للأذى، صبوراً على البلوى[2]، وكان من أحسن خلْق الله ذهناً[3].

ذكر الأدفوي أنّه كان من المحسنين الصالحين المتّقين[4].

نستخلص ممّا سبق أنّ ابن الحاجب رجل علم ودين وعمل، اتّسمت شخصيته بالتواضع والذكاء والعفّة والتقوى، والإنصاف، وتحمّل الأذى، والتبحّر في العلم، والعمل على نشره، فصار رجلاً له تأثيره فيمن حوله، يثقون به ويأخذون بأقواله وعلومه.

٣- ثقافته وأساتذته:

بدأ ابن الحاجب حياته الثقافيّة بحفظ القرآن، عندما حمله والده من إسنا إلى القاهرة، حيث كان الصبيان يبدؤون دراستهم بحفظ السور القصار من القرآن الكريم بطريق التلقين فتعلّم الخطّ[5]. وقضى معظم حياته في التحصيل العلمي حتى أصبح رأساً في علوم كثيرة، منها أصول الفقه وفروعه والعربيّة والتصريف، والعروض والتفسير، وغير ذلك[6].

لم يكن ابن الحاجب مهتمّاً بالفقه وعلومه فقط، بل درس العلوم المتّصلة بالقرآن أيضاً كالقراءات، فبرع فيها، وأتقنها، وغدا قادراً على التدريس، فدرّس بالجامع الأموي في زاوية المالكيّة، وأكبّ الخلق على الاشتغال عليه، والتزم لهم الدروس، وكان الأغلب عليه علم العربيّة[7].

يتّضح لنا في خلال هذا التقديم أنّ ثقافته ثمرة لدراسته وشيوخه وقراءاته، وأنّ الذهبيّة منها شكّلت أساساً لثقافته الواسعة المتنوّعة.

---

[1] بغية الوعاة ١٣٤/٢ ودائرة المعارف الإسلامية ص١٢٧،١٢٦، والحياة العقلية ص٥٩.

[2] ذيل الروضتين. أبو شامة ص١٨٢، والبداية والنهاية ١٧٦/١٣.

[3] وفيات الأعيان ٢٥٠/٣.

[4] الطالع السعيد ص٢٣٥.

[5] الحياة العقلية ص٨٦.

[6] البداية والنهاية. ابن كثير ١٧٦/٢٣.

[7] وفيات الأعيان ٢٥٠/٣.

أساتذته:

إنّ اتّساع ثقافته وشموخا، وتأثّره بالثقافة الكلاميّة، وما نجم عنها من اهتمام بالجدل النحوي يوضّح لنا تعدّد شيوخه وتنوّع اختصاصاتهم، وقد استخلصنا أسماء أولئك الشيوخ بقدر ما أسعفتنا المصادر، وذكرنا خلاصة عنهم، ورتّبناهم ترتيباً هجائياً على الشكل الآتي:

١- أبو الحسن الأبياري:

هو علي بن إسماعيل بن علي بن عطيّة، أبو الحسن الأبياري، شمس الدين، ولد سنة سبع وسبعين وخمسمئة للهجرة، وأصله من أبيار في مصر على شاطئ النيل، أخذ الفقه عن أبي الطاهر بن عوف، برع في علوم كثيرة كالفقه والأصول والكلام، درّس بالإسكندرية وتخرّج ابن الحاجب على يديه، وضع عدّة تصانيف منها: شرح البرهان للإمام الجويني، وكتاب سفينة النجاة على طريقة الأحياء، توفّي سنة ثماني عشرة وستمئة للهجرة[1].

٢- أبو الحسن الشاذلي:

هو أبو الحسن الشريف تقيّ الدّين علي بن عبد الله بن الحبّار، ينتهي نسبه إلى الإمام علي -كرّم الله وجهه-، كان ضريراً، كبير القدر، له نظم ونثر، وكان شيخ الطائفة الشاذليّة في عصره، قرأ عليه ابن الحاجب، وكان يحضر مجالسه عزّ الدين ابن عبد السلام، ويسمع كلامه، حجّ عدة مرّات، وتوفّي وهو في طريقه إلى مكّة المكرّمة سنة ستّ وخمسين وستمئة للهجرة[2].

٣- أبو الجود اللخميّ:

أبو الجود اللخميّ المنذريّ غياث بن فارس بن مكّي، المصريّ، المقرئ، النحويّ العروضيّ، الضرير، ولد سنة ثماني عشرة وخمسمئة للهجرة، كان شيخ القرّاء بديار مصر، قرأ القراءات على الشريف أبي الفتح الحطيب، وعلى الشريف ناصر، وقرأ عليه خلق كثير منهم ابن الحاجب، توفي سنة خمسين وستمئة للهجرة[3].

---

[1] حسن المحاضرة ١٣٥/٢، والديباج المذهب ١٢١/٢.

[2] الفتح المبين في طبقات الأصوليين، المراغي "عبد الله بن مصطفى" ٦٥/٢ دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٤هـ.
ونكت الهميان في نكت العميان، الصفدي "صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي" ص٢١٣، وقف على طبعة أحمد زكي، المطبعة الجمالية، مصر ١٩١١م.

[3] بغية الوعاة ٢٤٠/٢، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ص١٤٠.

٤- القاسم بن عساكر:

هو أبو محمّد القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله، الملقّب بهاء الدين بن الحافظ، ولد في دمشق سنة سبع و عشرين وخمسمائة للهجرة. سمع من العلماء، و أجازه أكثر شيوخ والده، كان محدّثاً، سمع منه ابن الحاجب، وكان والده من كبار فقهاء الشافعيّة، متفرّداً في الحديث وعلومه، وكان القاسم أيضاً حافظاً، حسن المعرفة، مديد الورع، تولّى مشيخة دار الحديث بعد والده. توفّي سنة ٦٠٠هـ، ودُفِنَ خارج باب النصر[1].

٥- الشاطبي:

هو القاسم بن فيرّه ابن أبي القاسم خلف بن أحمد الرُّعيني، المقرئ النحوي الضرير، ولد سنة ٥٣٨هـ، كان عالماً بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيراً، حافظاً للحديث، شافعياً صالحاً صدوقاً، ظهرت عليه كرامات الصالحين، أخذ القراءات عن ابن هُذيل وغيره، وسمع من السِّلَفيّ، دخل مصر سنة ٥٧٢هـ، وتصدّر بالمدرسة الفاضلية لإقراء القرآن والنحو واللغة، وهو صاحب القصيدة المسماة "حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات". صار أوحد زمانه في علم النحو واللغة، قرأ ابن الحاجب عليه بعض القراءات، وسمع منه التفسير والحديث، توفّي سنة ٥٩٠هـ[2].

٦- ابن البنّاء:

أبو عبد الله بن البنّا الشيخ أبو النجيب نور الدين محمد بن أبي المعالي عبد الله ابن موهوب بن جامع البغدادي الصوفي، الشافعي المقرئ، صحب الشيخ أبا النجيب السهروردي، وسمع من القاضي يحيى وابن الزاغوني وطائفة، أقرأ القرآن، وحدّث بالعراق والحجاز ومصر والشام، تأدّب ابن الحاجب عليه، وانتفع به جماعة، وهو منقطع بمسجد ابن البناء، توفّي سنة ٥٩١هـ[3].

٧- أبو الفضل الغزنوي:

بهاء الدين أبو الفضل محمد بن يوسف بن علي بن محمّد الغزنويّ البغداديّ، الفقيه الحنفي، ولد سنة ٥٢٢هـ، روى عن قاضي المارستان وقرأ على سبط الخيّاط، درّس المذهب الحنفي بمسجد

---

[1] غاية النهاية في طبقات القرّاء ١/٥٠٨، ووفيات الأعيان ٣/١١١، وشذرات الذهب ٤/٣٤٧.

[2] بغية الوعاة ٢/٢٦٠، ووفيات الأعيان ٤/٧١، ونكت الهميان في نُكَت العميان ص٢٢٨.

[3] الخطط المقريزية، المقريزي تقيّ الدين أحمد بن علي ٤/٢٦٥ مطبعة النيل مصر ١٣٢٥هـ، وشذرات الذهب ٥/٥٣.

الغزنوي، فأخذ عنه السخاوي العلم، وقرأ ابن الحاجب عليه جميع القراءات، توفي بالقاهرة سنة ٥٩٩هـ[1].

٨- البوصيري:

أبو القاسم هبة الله بن علي بن ثابت بن مسعود، المصريّ المولد والدار، ولد سنة ٦٠٠هـ، كان أديباً كاتباً، له سماعات عالية، وروايات تفرّد بها، حيث سمع من أبي صادق المديني، ومحمد بن بركات السعيديّ، وغدا مسنداً للديار المصريّة، حدث في القاهرة والإسكندرية، وأكبّ الناس على الاستماع إليه، وسمع منه ابن الحاجب الحديث، له مؤلفات قيّمة أهمّها: منتصر في علم الناسخ والمنسوخ، توفي في ثاني صفر سنة ٦٩٨هـ[2].

---

[1] شذرات الذهب ٤/٣٤٣، والنجوم الزاهرة ٧/١٨٤.

[2] حسن المحاضرة ١/٣٧٥، وشذرات الذهب ٤/٣٣٨، والطالع السعيد ص٣٥٣.

الفصل الثالث

موقفه من حركة الحياة في عصره

١- تلاميذه

٢- معاصروه

٣- مؤلفاته

أ- المنثورة

ب- المنظومة

٤- شعره

المقصود بحركة الحياة في عصر ابن الحاجب موقفه من التيارات السياسيّة والدينيّة والفكريّة التي سادت بلاد الشام ومصر في خلال حكم الأيوبيين الذي استمرّ إلى ما بعد وفاته بعامين، أي: في سنة (٦٤٨هـ)، التي لخّصناها عند حديثنا عن بيئته.

عمل القائد صلاح الدين الأيوبي جاهداً لجمع شمل الأمّة الإسلاميّة، والوقوف في وجه الفرنجة الطامعين بمصر والشام، وتحقيق الكثير من الانتصارات عليهم، إلاّ أنّ أولئك الصليبيين استمرّوا في التفكير بتوجيه حملاتهم على مصر وبيت المقدس من أجل استرجاعهما عندما تتهيأ لهم الظروف، لذلك اتّجهت حركة الحياة في عصر ابن الحاجب اتّجاهين:

الأول: خارجي تمثّل في الدفاع عن وجود الأمّة الإسلاميّة، وحماية مقدّساتها في ساحات المعارك.

الثاني: داخليّ تمثّل في مجالس العلم؛ للحفاظ على شخصيّة وكيان الأمّة الإسلاميّة ومعالم حضارتها، والتمسّك بتراثها، وعدم قبول التبعيّة والانخراط، إذ واكب ابن الحاجب كما عرفناه مسيرة النضال ضدّ الفرنجة.

أمّا موقفه من حركة الحياة الفكريّة في تلك المرحلة التي شهدت نهضة، فتجلّت في الحفاظ على علوم العربيّة وتشجيعها، حيث ازدهر التصنيف والتأليف في ميادين مختلفة من المعرفة، فكان موقفاً واضحاً حيث تأثّر بحركة الحياة في بيئته، وبدا فاعلاً ومنفعلاً.

أشارت سيرة حياته إلى إقباله على قراءة القرآن، والاهتمام بعلوم العربيّة والفقه، والعمل على إتقانها، وأشارت مصادر دراسته إلى أنّه بعد إتقانه لتلك العلوم لم يتنحّ بعيداً عن حركة الحياة الفكريّة والثقافيّة في عصره، ولم يكن أقلّ شأناً من معاصريه الذين برزوا في ميادين الثقافة المختلفة، بل سادَ عصره، وكان رأساً في علوم كثيرة منها: الأصول والفروع في الفقه، والعربيّة، والتصريف، والعروض والتفسير وغير ذلك[1]، كما أنّه كان معلّماً كبيراً، تصدّر لتعليم الطلاّب فترة طويلة في بلاد الشام ومصر، ففي خلال إقامته بدمشق كان يلقي دروسه على الناس في الزّاوية المالكيّة بالجامع الأموي الكبير، وكان شيخاً للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية[2]، وفي خلال وجوده في مصر كان فاعلاً أيضاً في حركة الحياة هناك، فتصدّر بالمدرسة الفاضليّة بالقاهرة مدة، وله إملاء على آيات من القرآن وأبيات من الشعر، ولازمه الطلبة للاشتغال عليه[3].

بدا فاعلاً أكثر في البيئتين المصريّة والشاميّة في المصنّفات التي وضعها، ولا تزال إلى الآن مراجع هامّة في النحو والصرف والأصول والفقه والعروض.

---

[1] البداية والنهاية ١٣/١٧٥.

[2] البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ٢٤٠، ودائرة المعارف الإسلامية ١/٣٦٠.

[3] البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ٢٤٠.

٣- الملك الناصر داود:

داود بن عبد الملك المعظّم عيسى بن العادل. ولد بدمشق سنة ٦٢٦هـ، خلف أباه في حكم هذه المدينة، ولكن عمّه الأشرف أخرجه على التنازل والاكتفاء بالكرك ونابلس. كان مهتمّاً بالشعر، واطّلع على علوم الأوائل، التجأ إليه ابن الحاجب في الكرك بعد خروجه مع عزّ الدين ابن عبد السلام سنة ٦٣٨هـ، درس الملكُ عليه النحو، ونظم له ابن الحاجب "الكافية في النحو" في أرجوزة سمّاها: الوافية، توفّي في دمشق سنة ٦٧٨هـ[1].

٤- عبد العظيم المنذري:

الإمام الحافظ شيخ الإسلام زكي الدين أبو محمّد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المصري الشافعي، ولد بمصر سنة إحدى وثمانين وخمسمئة للهجرة،وقرأ القرآن بالسبع، وتفقّه، ودرس النحو ونفقّه، ثم طلب الحديث فرواه عن ابن الحاجب، ورحل من أجله إلى مكّة والمدينة، ودمشق وحرّان حتى صار أحد الحفّاظ المشهورين، ولمّا عاد إلى مصر درّس بالجامع الظافري، ثم ولي مشيخة دار الحديث الكامليّة، وظلّ ملازماً لها ينشر العلم بها عشرين عاماً، وكان عزّ الدين ابن عبد السلام يحضر مجلسه. له تصنيفات في الحديث: اختصر سنن أبي داود في كتاب سمّاه "المجتبى"، واختصر صحيح مسلم، وسمّى الخطيب البغدادي.

توفي سنة خمسين وستمئة للهجرة[2].

٥- الشرف الدمياطي:

هو شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف، ولد سنة ٦١٣هـ في بلدة "تُوَنَة" ببحيرة "تنيس" من أعمال دمياط التي تلقّى ثقافته الأولى فيها، درس الفقه وأصوله، وقرأ القرآن، ثمّ ذهب إلى الإسكندرية وعمره عشرون عاماً، فأخذ الحديث عن ابن الحاجب، وقدم القاهرة، ولازم الحافظ المنذري، وصار معيداً له، ولي مشيخة الظاهريّة،درّس الحديث في المدرسة المنصوريّة، له مصنّفات في الحديث والفقه والتاريخ واللغة، منها: السيرة النبوية في مجلّد، وكتاب في الصلاة الوسطى، وكتاب الخيل، توفّي بالقاهرة سنة ٧٠٥هـ[3].

المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ٣/٢٩، ط١ المطبعة الحسينية، مصر ١٣٢٥هـ، والبداية والنهاية ١٣/١٩٨.

[1] طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٠٨، والطالع السعيد ص٣٥٣ والحياة العقلية ص١٣١.

[2] معرفة القرّاء الكبار ٢/٥١٧، وفوات الوفيات ٢/١٧، وحسن المحاضرة ١/٣٥٧.

١- صديقه ابن خلكان:

هو أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان، ينتهي نسبه إلى يحيى بن خالد البرمكي، ولد بمدينة أربيل من أعمال الموصل في الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ثمان وستمئة للهجرة، وأخذ يتنقل في البلاد لطلب العلم حتى صار فقيهاً أديباً مؤرخاً، قدم سنة ٦٣٦هـ إلى القاهرة فعيّن فيها نائباً لقاضي القضاة يوسف بن حسن البحاري، ولما تولى بيبرس عرش مصر عيّنه قاضي قضاة الشام، وتنقل في مناصب أخرى، كان صديقاً لابن الخاجب، يتردد عليه، ويسأله عن موضع في العربية مشكلة، وكان يعجب بعلمه ويثني عليه، ألف كتابه الكبير "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" الذي يعد من أعظم المصادر المعتمدة في التراجم، توفي بدمشق سنة ٦٨١هـ[1].

٢- أبو اليمن تاج الدين الكندي:

هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الحميري، أبو اليمن تاج الدين الكندي، ولد ببغداد في الخامس عشر من شعبان سنة ٥٢٠هـ، تلقى ثقافته، فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنوات، وأكمل القراءات العشر وله عشرة أعوام، أخذ النحو عن ابن الشجري، واللغة عن أبي منصور الجواليقي، وتفقه على مذهب أحمد بن حنبل، اشتغل بالتعليم والإفادة أكثر مما اشتغل بالتأليف، دخل حلب واستوطنها فترة، ثم تركها، وسكن دمشق، واشتغل بالتدريس فيها، من آثاره: شرح خطب ابن نباته، وحاشية على شرح ديوان المتنبي لعبد القادر الحلبي، توفي بدمشق سنة ٦١٣هـ[2].

٣- عز الدين ابن عبد السلام:

هو عز الدين شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، ولد بدمشق سنة سبع أو ثمانٍ وسبعين وخمسمئة للهجرة، قرأ الأصول على الآمدي، وتفقه على القاضي جمال الدين ابن الحربستاني، وفخر الدين ابن عساكر، وأخذ الحديث عن القاسم بن عساكر، ودرس النحو، وتبحر في أصول الفقه وأصول الدين والتفسير، ووصل إلى مرتبة الاجتهاد في الفقه، ولي في دمشق خطابة الجامع الأموي، والإمامة فيه، ولما جاء إلى مصر ولي خطابة جامع عمرو بن العاص

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٤، والبداية والنهاية ١٣/٣٨، والحياة العقلية ص٢٧٠.

[2] وفيات الأعيان ٢/٣٣٩، والبداية والنهاية ١٣/٧١، والحياة العقلية ص٢٠١.